



22 أكتوبر 2008

في حفل تأبينه

بقلم: نعمة عز الدين

كلمات صادقة مليئة بمشاعر الحب والعرفان بالفضل للدكتور الراحل "رؤوف عباس" وذلك في يوم تأبينه بالجمعية المصرية التاريخية الأسبوع الماضي وحضره حشد كبير من رفقائه وتلاميذه وأسرتة الصغيرة المكونة من زوجته الفاضلة وابنه الوحيد "حاتم رؤوف عباس".. اللذين أهديا الجمعية مكتبة الفقيد القيمة، كما أطلقت الجمعية اسم الدكتور "رؤوف عباس" علي قاعة السماترات بالدور الأرضي بها. كما تقرر أن تكون هناك محاضرة افتتاحية في بداية كل ندوة سنوية تكريماً للفقيد الراحل، وتمت الكتابة إلي الهيئة العامة لقصور الثقافة بشأن عمل تمثال تذكاري للفقيد ضمن مشروع "ذاكرة الوطن". والمؤرخ المصري والمفكر القومي البارز الدكتور رؤوف عباس علامة فارقة في مجال الدراسات التاريخية، وربما لنشأته الأولي دور كبير في تكوينه الفكري والعلمي، فكما تبرز مذكراته التي صدرت منذ سنوات تحت عنوان: "مشيئنا خطي" حجم المعاناة التي لقيها في حياته حيث يقول: إنه ولد لأسرة فقيرة شأنها شأن السواد الأعظم من المصريين عندئذ، حيث كان والده عاملاً في السكة الحديد يشغل أدني درجات السلم الوظيفي للعمال، وكان جده لأبيه عاملاً أيضاً في السكة الحديد نزع من قرينه "جرجا" في صعيد مصر إلي مدينة بورسعيد، وعن والدته يقول: إنها بورسعيدية من أصول دمياطية يعمل والدها بحاراً يبيع التذكارات الشرقية علي ظهر قارب بجوار السفن عند دخولها القناة، وتحفل المذكرات أيضا بلحظات ألم وبأس تعرض لها العالم الكبير رؤوف عباس كادت تدفعه للتوقف عن الدراسة ولكنه استطاع عبر التحمل والمناورة أن يواصل تعليمه العالي ويعمل في بعض المهن البسيطة حتي تم تعيينه في شركة قطاع عام تنتج حامض الكبريتيك وسماد السوبر فوسفات، واستمر بالعمل فيها مدة خمس سنوات استطاع خلالها الاقتراب من العمال وجعل حياتهم موضوعاً لرسائلته للماجستير عن "الحركة العمالية وتاريخ الحركة النقابية في مصر ونوقشت رسالته في نوفمبر 1966 وفي عام 1971 حصل الدكتور رؤوف عباس علي درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث بمرتبة الشرف الأولي ليعمل أستاذاً في قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة. يقول د. عادل غنيم، رفيق الدرب والذي تولي رئاسة الجمعية المصرية التاريخية خلفاً للدكتور رؤوف عباس: لقد أدرك مجلس إدارة الجمعية منذ البداية أن خير تكريم لرؤوف عباس هو المحافظة علي تحقيق الاستقرار للجمعية ومتابعة الخطي من أجل تطويرها وتحديث أجهزتها، فلقد ترك رؤوف عباس فراغاً كبيراً يصعب ملؤه إلا إذا تصافرت الجهود من أجل الحفاظ علي هذا التراث، ولم يكن هذا الفراغ ملموساً في الجمعية فقط، لكنه شمل جانباً من الحياة الثقافية، بدلنا علي ذلك كم ونوعية المقالات التي كتبت بعد وفاته والتي حررها مثقفون متعددون والثقافات والاتجاهات وبلغ من هول الفاجعة أن وطنياً بارزاً هو الدكتور محمد أبو الغار نعي إلي أهل مصر رؤوف عباس باعتباره أحد البنائين الكبار الذين ناضلوا من أجل الوطن وجعلوا التاريخ ملكاً للمواطنين البسطاء وليس حكراً علي الدائرة الأكاديمية. في عام 1972 يسافر الدكتور رؤوف عباس إلي طوكيو في مهمة علمية في معهد اقتصاديات الدول النامية، وكانت هذه المهمة انقلاباً في حياته العملية، فضلاً عن إسهامها في تكوينه المنهجي وفي دراسة التاريخ المقارن وتعمقه في دراسة تاريخ اليابان في القرن التاسع عشر، فقد اكتسبه مهارات بحثية جديدة ومنحته أفقاً آخري حيث استثمر تلك الفترة في ترجمة كتاب "يوميات هيروشيما" وتأليف كتاب آخر بعنوان "المجتمع الياباني في عصر مايجي" أصدره في حقبة التسعينيات من القرن العشرين حينما احتدم الجدل في ساحة الثقافة العربية حول المقارنة بين مشروع محمد علي النهضوي واليابان في القرن التاسع عشر. يقول رؤوف عباس في تقديمه لترجمة كتاب "أين الخطأ؟" لبرنارد لويس: كتاب برنارد لويس ليس فيه جديد سوي عنوانه وهي مهارة انفرد بها، فهو يصوغ مقولاته الأساسية مستخدماً المادة نفسها التي اشتغل عليها في كتب سابقة مثل "الإسلام والغرب" و "اكتشاف المسلمين لأوروبا" و "اللغة السياسية للإسلام" فكتابات لويس عن تاريخ وثقافة وسياسات الشرق الأوسط محملة بأجندة أيديولوجية تجمع بين المركزية الأوروبية والصهيونية مما جعلها وصاحبها مثاراً للجدل علي ما يزيد علي الثلاثين عاماً. إلي هنا ينتهي حديث الدكتور رؤوف عباس عن الاستشراق، ولكن يستكمل تلميذه الدكتور ناصر إبراهيم استعراض هذه الآراء موضحاً أن الدكتور "رؤوف عباس" كان دائماً يري أن الاستشراق ذو نزعة عدوانية تجاه العرب خاصة ما يخص الفترة العثمانية والتي يتهمها كثير من المستشرقين بأنها السبب في التخلف الذي يعانيه المسلمون الآن، نظراً لضعفها وتدهورها الاقتصادي والسياسي والثقافي، ويتساءل: كيف لنا أن نكون بكل هذا الضعف ونجز ما تم إنجازه في هذه الفترة التاريخية المهمة من حياة المسلمين والعرب وكيف استطعنا أن نقيم حضارة عربية وإسلامية مازالت آثارها باقية حتي الآن؟! ويتناول المستشرق الإنجليزي "بيتر جبران" - والمعروف بصداقته للدكتور رؤوف عباس ومعظم المؤرخين المصريين - كتاب "النظام الاجتماعي في ظل الملكيات الكبيرة" الذي كتبه الدكتور رؤوف عباس عام 1973، ففي هذا الكتاب يصور الدكتور رؤوف عباس الملك كجزء مهم من تاريخ مصر الحديث ولكن ليس كجزء من التاريخ القومي "السياسي" فقد بدأ كتابه بعام 1837 أي بعد زمن إصلاحات "محمد علي" وتوقف عند 1914 أي قبل ثورة 1919. وهذا الكتاب رد علي

سؤال من كان كبار الملاك؟ وما هو نظام ملكية الأراضي الزراعية في القرن التاسع عشر؟ وما هي المصادر التي نعرف منها حجم الملكية الزراعية وأساسها؟ وكان الرد علي الجزء الأخير من السؤال أنه لا بد أن نعتد أساساً علي الأرشيف المصري الخاص بمكلفات الأقطان الزراعية، وكان رده علي الجزء الأول من السؤال أن كبار الملاك كانوا مجموعة أفراد من الحكام والموظفين الكبار ومن شيوخ القبائل ومن الأجانب ومن غيرهم من الذوات وفي القرن التاسع عشر كانت هذه المجموعة أو الطبقة قد نشأت مع نشأة السوق الدولي. وكانت هذه المعلومات التي أوردها رؤوف في كتابه معرفة جديدة حتي فيما يتعلق بالمفاهيم. أما د. عبدالمنعم الجميبي فيضيف: كان رؤوف عباس حريصاً علي أن تأخذ الجمعية التاريخية مكانتها اللائقة بها كمركز علمي ثقافي متميز ومنازة للعمل العلمي الذي لا يهدف سوي خدمة تاريخ الأمة ومعهد لإعداد الكوادر العلمية ومع كل الجهود التي بذلها رؤوف عباس فقد حاول بعض أعداء الذين لا ينتجون ويسوؤهم أن ينتج الناس، ولا يفكرون ولا يطبقون أن يروا غيرهم يفكرون حاولوا الإساءة لهذا الرجل العظيم فوجهوا الشائعات التي تحاول التقليل من جهود رؤوف عباس ومع ذلك فقد كان كالنخلة التي تسقط أحلي الرطب لمن يقذفها بالحجر، فلم تلن له قناة ولم تهتز ثقته بالآخرين بل ظل معطاء للخير يساند من يطلب يد العون والمساعدة.

<http://www.alwafd.org/details.aspx?nid=3626>